أثر اللغة العربيـــــة

فى العالم الاسلامى

للسير دنسون روس

مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن

— ٢ —

الهند :

سأبدأ الآن بالهند مبيناً ما تدين به تلك البلاد للعرب . وكلكم تعلمون أن الفتوح الأولى للقوات الاسلامية فى الهند ، لم تذهب بهم بعيداً داخل تلك البلاد . ومن ثم كانت قليلة الأثر هناك . ولكن الأتراك فى القرن العاشر استطاعوا أن يتوغلوا بالاسلام الى مسافات بعيدة داخل الهند ، إلى أن كان القرن الثالث عشر ، وهنا نرى أول ملك اسلامى يتبوأ عرش (دلهى) .

ولننظر الآن ما كانت عليه أحوال تلك البلاد فى ذلك الوقت ، نرى قبل كل شىء أنه كان يوجد فى الهند آداب واسعة ، هندوكية وبوذية ، وكانت تتجلى فى اللغات الكلاسيكية التى لم يكن يفهمها إلا طائفة محصورة من الناس . ثم يأتى بعد ذلك أن الهنود كانوا وثنيين ، وأنهم كانوا أول عدو من غير أهل الكتاب صادفهم المسلمون .

ويعتبر فى الحقيقة أتراك أواسط آسيا أول من نشر الاسلام بشكل واسع فى الهند ، وكان هؤلاء الأتراك يتكلمون التركية بينما كانت ثقافتهم فارسية ، وهى تلك الثقافة الفارسية الحديثة ، التى ظهرت فجأة فى بلاط (سمندس) فى بخارى .

وعلى ذلك يكون الاسلام قد أدخل فى الهند لغتين : العربية لغة الدين ، والفارسية لغة الشعر ؛ وكانت العلاقة الوثيقة بين اللغة الفارسية ، واللهجات السائدة فى الهند الشمالية ، هى بلا شك السبب فى أن مسلمى الهند قد اختاروا الفارسية واسطة لآدابهم دون العربية والتركية ، واستمر الحال كذلك بينهم حتى القرن الخامس عشر ، إذ لم تصل اللغة الأردية — وهى خليط من الهندية والفارسية ، إلى المستوى الذى تصلح معه لأن تكون واسطة أدبية — إلا فى ذلك القرن .

ولم يك مسلمو الهند قادرين على تذوق العبقرية التى امتازت بها العربية بالسرعة التى كانت عند غيرهم من الفرس ، ولكن حدث على مر الأيام أن اصبحت الهند أدباء تابعين . ومما هو جدير بالملاحظة أن بعضاً من النصوص العربية (١) الأنيقة كان من وضع أدباء الهند فى العصور الأخيرة

وإنى أميل بعد ذلك إلى أن أقرر أن أعظم تغيير أحدثته الثقافة الاسلامية بعد ذلك الغير الهائل . وهو دخول هذا العدد العظيم من الهند فى دين التوحيد . إنما هو ما طرأ على الهنود من الميل الى تذوق التاريخ

فان هذا العلم لم يصادف هوى فى قلوب الهنود من قبل . اذ كان يعتبر أمراً مادياً صرفاً فى نظر قوم مفكرين وفلاسفة بالسليقة . وهذا هو السبب فى أن التاريخ الهندى القديم قد جمع بصعوبة عظيمة . وكان الاعتماد فى جمعه على ما عثر عليه من النسكة والتماثيل ، دون أن يكون هناك بجانب هذه الأشياء مخلفات كتابية .

ولا تزال التواريخ بل القرون التى ظهر فيها بعض الحكماء الأولين موضع جدل ومناقشة . فلما ظهرت الهند الاسلامية ، دبت الحماسة فى قلوب الناس فجأة نحو كتابة التاريخ . وكان من نتيجة ذلك أن دونت مع التوسع أخبار جميع ملوك دلهى ابتداء من القرن الثالث عشر .

وينبغى ألا يفوتنى هنا أن أذكر ادخال الحروف الهجائية العربية فى الهند ، وانتشار الكتابة بين الناس على العموم . فى بلد كان كل ما يتعلق بالعلم والكتابة فيه محصوراً فى أيدى البراهمة

أواسط آسيا وبلاد فارس :

مهما أطنبنا فى وصف الأثر الذى تركه تعلم اللغة العربية فى عقول سكان أواسط آسيا والهند ، فلن يعد ذلك منا إسرافا أو مبالغة ، فان الأثر الذى تركته العربية فى عقول الأتراك والفرس ، ومسلمى الهند ، كان أجل شأنا وأعظم خطراً من الأثر الذى تركته اللاتينية فى عقول الأدباء من أهل أوربا فى العصور الوسطى .

فمع أن اللاتينية كانت الواسطة للكتابات الدينية والعلمية ، لم يكن هناك ميزة أخرى من ورائها سوى تلك المهارة الأدبية التى كان يتصف بها كل من تثقفها . إذ كان قبل حركة الأحياء الكاثوليكية بزمن طويل ، نصف سكان أوربا ينظمون الشعر ويتغنون به ، كما أن بعض اللغات كانت قد اتخذت فعلا شكلا

(١) Arabic Diction

محدوداً ، واصطبغت بصبغة البيئة التي وجدت فيها .

ولم يكن الأمر كذلك في العربية ، فان العربية قد أمدت المستعربين في أواسط آسيا بثقافة تعتبر جديدة من جميع الوجوه . وبثت في قلوب هؤلاء أفكارا طريفة ، وفتحت أمام أعينهم عوالم جديدة ، وبعبارة أخرى ، فان العربية أمدت الفرس والأتراك والهنود بلغة جديدة ، ولا غرابة في ذلك ، فانه بالقضاء على الديانات القديمة قضاء ظاهراً ، وبحلول العربية محل اللغات القديمة في المسائل الأدبية ، ثم باستبدال الثقافة الاسلامية بكل ما يرجع في أصله الى الثقافة الآرية ، كل أولئك يحملنا على القول بأن العربية قد أمدت بلاد فارس بخزائن جديدة من العلم ، الى جانب لغة مكتوبة منظمة . أو قل أمدت الفرس « ببعث قومي جديد مع ثقافة حديثة » وكل ذلك في وقت واحد ، فلقد تحفت العربية أواسط آسيا بالشعر العربي الذي غير وجه الشعر هناك ، ثم بالفلسفة اليونانية ، وغيرها من العلوم .

ونستطيع أن نقول أن المجوسية ، لم يكن لها إلا معنى ضئيل في عقول معظم رعايا الساسانيين ، وكان لا يفهمها إلا طائفة الكهنة ، بينما كانت لغة الكتب المقدسة وهي الفهلوية لا يكاد يفهمها إلا رجال الدين ، وطائفة الموظفين الرسميين .

فمن السهل اذن أن نتصور الأثر المباشر الذي أحدثته العقائد الاسلامية في الفرس ، بله الروعة والدهشة اللتين تركهما في نفوسهم ذلك الكتاب المقدس الذي نزل بلسان سهل مبين .

هذا وينبغي ألا ننسى أنه في الأيام الأولى قبل ادخال الشكل ، وخلو العربية من الحروف التي تعين الساكن والمتحرك ٢ لم يكن من السهل قراءة اللغة العربية ، ولكن العربية كانت على أي حال أسهل من الفهلوية ، إذ كان نظام هذه الاخيرة في الكتابة أصعب نظام عرف حتى ذلك الوقت . ولكن حينما ظهرت مدارس النحو في الكوفة والبصرة ، أصبح من السهل ضبط العربية واستيعابها .

وهذا البحث يؤدي بنا الى الهجاء العربي ، والى فن الاملاء ذلك الفن الذي كان حتى ذلك الوقت مجهولا تمام الجهل في فارس والهند .

أحس الناس وعلى الخصوص غير العرب منهم فضلا عن الزهو الذي داخل نفوسهم بتعلم اللغة العربية ، سرورا وميلا عظيما نحو تلك الحروف المرنة السهلة وهي الحروف الهجائية العربية . ولقد كان لهذه الحروف في نفوسهم مثل ما للصور من الجمال الفني ولاسيما اذا نقشت على ظاهر المباني ، أو اذا حفرت على الاضرحة والمقابر سواء ما كان منها ثلثاً أو كوفياً أو نسخاً

ولست — الى حد كبير — أشك في أن هذه الزخرفة الانيقة في رسم الحروف العربية انما كانت نتيجة لتحريم تصوير الاشخاص في العهود الاولى . ولكن بحث هذه النقطة ربما يخرج بي بعيداً عن الموضوع .

ويجب ألا ننسى أن العرب لم يدخلوا معهم الى تلك البلاد أي شيء في شكل فني ، وأن الفرس كانت لهم تقاليد فنية ترجع الى ما يزيد على ألف سنة . ومما يدعو الى الدهشة أن الأغريق وقد حكموا الفرس فعلا نحو قرنين لم يتركوا فيها أي أثر أدبي ، كما أنهم لم يتركوا شيئا من هذا في الهند . وكذلك لم يترك فتح الفرس لمصر أي أثر في تلك البلاد . وهكذا استمر الفرس حتى الفتح الاسلامي محتفظين بآدابهم منعزلة تماما عن أي تأثير من غيرهم .

وكانت آداب الفرس محدودة من جهة الانتاج ، فلم يكن لديهم عدا بعض الكتب الدينية الا مجموعة من السير والتواريخ كما أنهم ترجموا أمثال بيدبا عن السنسكريتية

على أن بعض القطع الفهلوية تدلنا على أن الفرس قد أكثروا من الشعر ، وربما كانت « المناظرة » ٣ ترجع في أصلها الى الفرس ولكن الأوزان والقوافي العربية كانت أمرا جديدا بالنسبة لهم . وان المرء ليعجب لتلك السرعة التي أخذ بها الفرس هذه الأشياء .

وأريد أن أختم كلامي بكلمة عما ندين به العربية للفرس . كنا نعرف أن خلفاء المسلمين في دمشق وبغداد كانوا يدينون للفرس بكل المسائل المتعلقة بالحكم ونظام الملك ، ومما يذكر عن أحد الخلفاء الامويين أنه قال : اني لأعجب من أمر هؤلاء الفرس : لقد حكموا ألف سنة دون أن يحتاجوا الينا مرة . بينما نحن لم نستطع مدة المائة سنة التي حكمناها أن نستغني عنهم لحظة .

ان العلم الاسلامي في القرون الاولى كان يدين للأغريق بالمسائل العلمية والفلسفية ، ولكنه كان يدين للفرس بما وصل اليه من الآداب الجميلة . وما علينا لكي نفهم أثر الفرس في تلك الثقافة العربية الفخمة لا أن نستعيد اسماء هؤلاء الشعراء والكتاب المجيدين لنرى عدد من يرجع منهم الى الفرس من حيث الأصل أو المولد .

« محمود الخفيف »

(الرسالة) كنا وعدنا أن ننشر المحاضرتين الأخيرتين بعد هذه المحاضرة ، ولكننا بعد المراجعة والنظر لم نجد فيها شيئاً لم يقله أدباؤنا وعلماؤنا ؛ فاكتفينا بذلك

(١) Magniem. (٢) Vowel Sounds

(١) Minasara